مزجُ الحسِّ الجماليِّ بالمقياسِ البلاغيِّ بالحكمِ النقديِّ ابنُ سنانٍ الخفاجيِّ أُنمُوذَجًا

فيجان أيوب أوغلو

الملخص

مزج الحس الجمالي بالمقياس البلاغي بالحكم النقدي: ابن سنان الخفاجي أنموذجًا

صنف ابن سنان كتابه "سر الفصاحة" في البلاغة فانطلق إلى دراستها من خلال النصوص الأدبية التي استقصاها في مظانها المختلفة،ورغم أن الدارسين تعرضوا لكتابه نقدا وتحليلًا،إلا أن هناك ملمحا بارزًا يلح على القارئ امتاز به ابن سنان من غيره من البلاغيين وهو مزج الذائقة الأدبية بالمعايير البلاغية والأحكام النقدية،لاسيما أنه طمح إلى أن يصنف كتابا مستقلا بهذا الغرض لكن القدر لم يسعفه،وظلت رؤيته ونزعته تجذبه نحو هذا المنحى الذي تحققت بعض ثمراته في "سر الفصاحة".

لم يشأ ابن سنان أن يتناول البلاغة منفصلة عن الذوق الأدبي والحس الجمالي،ولم يدعْها أيضًا دون أن يشفعها بضابط من الحكم النقدي،بل مزج ذلك كله وصهره في بعضه حتى صارت روحًا سارية في تضاعيف الكتاب وفصوله،بل يكاد يشهد كل فصل بهذا المزيج،فقد مكنه تمرسه بالعمل الأدبي من إدراك مواطن الحسن والجمال أو القبح والضعف في النصوص،فتهيأت له ميزة فوقها وهي الإصابة في صياغة القواعد البلاغية والمقاييس الجمالية التي اعتملت واختلطت حتى انصهرت جميعها في بوتقة واحدة.

وسوف تتناول هذه الورقة موقف ابن سنان ومنهجيته في هذا المزج وقد نظر إلى عمل البلاغيين ونقدَهم فيما اختاروه من نصوص وما رجحوه من أقوال،وترصد الباحثة كل ذلك وتبين كيف أن نقده كان نقدا لجفاف المادة البلاغية المعروضة،وأنه لا ينبغي أن تُدرَس البلاغة بمعزل عن الحس والجمال وهو في ذلك يؤكد منهجه ويدعم مهيعه،كما تعرض الورقة ما بذله ابن سنان من جهد كبير في اختيار النصوص من دواوين فحول الشعراء وكبار الكتاب للاستدلال بها على ما يريد تأصيله بلاغيا وجماليًا.وقد استنبطت الباحثة من المعالجات طائفة من المقاييس التي حقق بها ابن سنان ذلك المزج،وبينت أدلتها ودلالاتها ودللت عليها،كما عرضت نقدات الدارسين المحدثين له،ثم شفعت ذلك برأيها فيما أثير من قضايا نقدية فختمت به.وحول هذا يدور البحث،وتكمن جدته.

مزج الحس الجمالي بالمقياس البلاغي بالحكم النقدي

حين تناول ابن سنان البلاغة لم يشأ أن يتناولها بمعزل عن الذوق الأدبي والحس الجمالي الذي هو جوهر الأدب،ولم يدعها أيضًا دون أن يشفعها بضابط من الحكم النقدي،بل مزج ذلك كله وصهره في بعضه حتى صارت روحًا سارية في تضاعيف كتابه (سر الفصاحة)١،ويكاد كل فصل ينطق بهذا المزيج من الذوق الفني،والفكر البلاغي،المنضبط بالحكم النقدي،المغلف بالحس الرهيف لشاعر مكنته خبرته وتمرسه بالأدب من إدراك مواطن الحسن والجمال أو القبح والضعف في النصوص،لتصدق عليه مقولة البحتري"إنما يعرف الشعر من دُفِعَ إلى مضايقه"،وتهيأت لمنهج كتابه مَيزةٌ فوق ذلك وهي كسر الجمود في تناول الدرس البلاغي بمزج الذوق الجمالي بالحكم النقدي٢

وإذا ما أردنا تفسيرا لذلك فلا نعدو عن البحث أولا في ماهية العلائق والصلات التي ربطت البلاغة والنقد بوشائج قربى قديمة قدم الدرس الأدبي ذاته بعامة،فليس بالإمكان الفصل بينهما ببرزخ لا يبغيان،أو منع المياه المنسابة بينهما من الجريان،فما قامت البلاغة إلا على أساس النقد الذي يُعنَى بذكر مواطن الحسن أو القبح في الكلام"وإذا كان هدف النقد البحث عن الجمال ومحاولة إحصاء مظاهره والإشادة به وذكر القبيح في معرض التنديد به والتحذير منه،فإن البلاغة هي ثمرة هذا البحث ومجتمع

مظاهر الجمال صيغت في فصول وأصول وقواعد"٣.

ذهب الدكتور محمد حسن عبدالله إلى أن منتصف القرن الثالث الهجري لم يكن هناك علم يسمى "البلاغة" وإنما كان هناك البلغاء والتعبير البليغ فحسب،وقد احتاج الأمر إلى نصف قرن تقريبًا ليوضع أول كتاب حوى مسائل بلاغية صريحة أو صارت جزءًا من علم البلاغة،وهو كتاب البديع لمؤلفه عبدالله بن المعتز(٢٤٧هـ ٢٩٦هـ) ولكن الطريف حقًّا أن كل من حاول أن يتصيد مسائل أو محاولات فردية مبكرة للبلاغة لم يجد إلا المسائل المشهودة لبواكير النقد الأدبي ابتداءً بخيمة النابغة المضروبة في عكاظ للحكم بين الشعراء وانتهاء بأثر القرآن في تنمية أحاسيس العرب بمعنى البلاغة وروعة الفصاحة"٤

هكذا اختلط النقد بالبلاغة،وارتبطا بعروة وثقى فترة طويلة،ولم يكَدْ ينصرم القرن الخامس الهجري حتى بدت في الأفق ملامح انفصالهما حين أقام عبد القاهر الجرجاني أسس البلاغة في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"٥وكان ذلك إيذانا بمرحلة جديدة من الاستقلالية لكل منهما،لتضطلع البلاغة بدور مهم في البحث في بعض الجوانب التي يحتاج إليها النقد الأدبي،كفصاحة الألفاظ،ومكامن القوة والجمال في الجملة وصلة ذلك بعلمي المعاني والبديع،وما يتصل ببسط الأفكار وشرح معانيها من خلال علم البيان،وبهذا تناولت علوم البلاغة كثيرًا من جوانب النقد الأدبي،حتى تخصصت وبلغت مبلغًا كبيرًا٦

ولإبراز الفروق الجوهرية بين البلاغة والنقد فحسبنا ما ذكره الأستاذ أحمد الشايب الذي أوجزها في وجوه ثلاثة:

الأول: أن البلاغة إيجابية سابقة،فإنها تضع للأديب القوانين التي تساعده على التعبير وتأليف الكلام الواضح الجميل،ولكن النقد يفرض أن الكلام قد تم إنشاؤه ثم يتخذ من قوانينه ما يقدر بها هذا الكلام لبيان ما فيه من محاسن أو مساوئ،ولذا يأتي متأخر الوظيفة

الثاني: أن البلاغة تُعنَى بالأسلوب أكثر فتفرض أن الأديب عنده مادة يريد أداءها مهما تكن قيمتها ثم ترسم له طرق الأداء شعرًا ونثرًا،خطابةً أو قصاصًا أو تقريرًا أو تمثيلًا،أما النقد فيعنَى بالأسلوب والمادة جميعًا ويتناولهما بالتقرير على حد سواء،وإن كانت مقاييسه –عامة– قليلةً

الثالث: أن الأصل في البلاغة أنها مرتبطة بالقراء والسامعين،والبليغ ملتزم بملاحظة حاجتهم الثقافية ومستواهم في الفهم،وما يحيط بهم من مؤثرات ثم يؤلف كلامه مطابقًا لهذه الأحوال،والصلة في الأدب الاتصال بالأديب نفسه وتقرير مواهبه وآرائه في صدق ووضوح"٧.

ويضيف الدكتور بدوي طبانة إلى الوجوه التي ذكرها الأستاذ الشايب وجهًا رابعًا وهو اعتماد النقد أكثر على الذوق وما يثيره الأثر الأدبي في نفس القارئ أو السامع من أحاسيس وانفعالات"٨

ونخلص إلى أن طبيعة النقد الأدبي تقوم على النظر في مستويات التعبير الفني الجميل في شقيه النظري والتطبيقي باعتبارهما متمازجين متلازمين في ثنائية فريدة تجعل منهما شيئًا واحدًا،وأن الحال بقي هكذا حينا من الدهر حتى انفصلت البلاغة وغدت علمًا قائمًا بذاته،فاتجه النقد إلى ممارسة مهمته الأساسية وهي تحليل النصوص الأدبية وتطبيقها. فأين ابن سنان من هذا ؟ لقد اتخذ لتحقيق ذلك المزج طائفة من المقاييس الأدبية والقواعد البلاغية،لتكونا منطلقه إلى ما يؤمه،ومنها:

١-الذوق مقياس للنظر في النصوص الأدبية :

أولى ابن سنان الذوق الأدبي اهتمامًا بالغا،ودعا إلى اتخاذه مقياسًا،مؤكدًا أن العمل الأدبي لابد له من عنصر الذوق وإلا سرى إليه الضعف والفتور،وأن معرفة الأصول والقواعد وحدها لا تتيح للشاعر قدرة على الإجادة ولا تمكنه من الإبداع.٩

ولعل الوجه الرابع الذي أضافه الدكتور طبانة –وذكرناه آنفًا– هو حقيقة ما فعله ابن سنان،وقد شهد–أي الدكتور طبانة– لابن سنان بأنه أدخل الذوق مقياسًا في تقويم النصوص،وبه انماز عن غيره من علماء البلاغة المتأخرين أمثال السكاكي والقزويني وغيرهما،يقول:" يفضل كل أولئك بأنه لم يسلك في دراسته البيان ذلك المنهج القاعدي الجاف الذي ينفر من البلاغة وإنما سار الخفاجي بالبلاغة والنقد الأدبي سيرًا مزدوجًا فيه التحديد والتعريف وإلى جانبه النص والمثال وإلى جانبه الرأي السديد في الحكم بالإصابة أو سوء الاستعمال"١٠.

لقد استطاع ابن سنان أن يجعل من الذوق قاعدة انطلاق يؤسس من خلالها قواعد البلاغة فيحتكم الأديب أولًا إلى

ذائقته الأدبية وحسه الفني فيما يذهب إليه،يقول:"والشاهد على ما ذكرناه الحس،فإن الكلفة في تأليف المتجاور ظاهرة يجدها الإنسان في نفسه حال التلفظ"١١.ويقول أيضًا:"والذوق يشهد بما قالوه ويقضي بصحته"١٢.

وقوله أيضًا:"والوزن هو التأليف الذي يشهد الذوق بصحته أو العروض،أما الذوق فلأمر يرجع إلى الحس،وأما العروض فإنه قد حصر فيه جميع ما عملت العرب عليه من الأوزان،فمتى عمل الشاعر شيئًا لا يشهد بصحته الذوق،وكانت العرب قد عملت مثله جاز له ذلك كما ساغ أن يتكلم بلغتهم،فأما إذا خرج عن الحس وأوزان العرب فليس بصحيح ولا جائز؛لأنه لا يرجع إلى أمر يسوغه،والذوق مقدم على العروض،فكل ما صح فيه لم يلتفت إلى العروض في جوازه"١٣.

على هذا النحو يمضي ابن سنان يحلل النصوص ويكشف مقاييس الصحة والجمال فيها،وما يعتري الكلمة من قبح وفساد من خلال تحليلاته،ومع ذلك فقد أدرك أن هناك حسنًا لا يدركه الذوق،وأن بيان وجه الحسن والجمال من الصعوبة إدراكه في بعض مواطن النص الأدبي،فقال:" وقد يكون هذا التأليف المختار في اللفظة على جهة الاشتقاق فيحسن أيضًا،كل ذلك لما قدمته من وقوعه على صفة يسبق العلم بقبحها أو حسنها من غير المعرفة بعلتها أو بسببها"١٤.

هكذا أدرك ابن سنان دور الذوق وخطورته،وأهمية الإحساس بالجمال لما له من أثر ينعكس على تقرير القواعد البلاغية أو تسويغها أو تدعيمها،يقول:"وعلة هذا واضحة وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر،ولاشك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة،ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه من الصفرة لقُرْب ما بينه وبين الأصفر،وبُعْد ما بينه وبين الأسود،وإذا كان هذا موجودًا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه،كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة في العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة،وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

فالوجْهُ مثلُ الصبح مُبْيَضٌّ
والفَرعُ مِثْلُ اللَّيلِ مُسْوَدُّ
ضِدانِ لما اسْتُجْمِعا حَسُنَا
والضدُّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

وهذه العلة تقع للمتأمل وغير المتأمل فهمها"١٥.

٢- مقياس الطبع :

من أبرز مظاهر الربط بين البلاغة والنقد في منهج ابن سنان أنه جعل من مقياس الطبع قاعدة للتفرقة بين السجع والفواصل وبيان متى يكونان محمودين أو مذمومين،فقال:" إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرناه،والفواصل على ضربين:ضرب يكون سجعًا؛وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع،وضرب لا يكون سجعًا؛وهو ما تقاربت حروفه في المقاطع ولم تتماثل،ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين- أعني المتماثل والمتقارب- من أن يكون يأتي طوعًا سهلًا وتابعًا للمعاني،وبالضد من ذلك،حتى يكون متكلفًا يتبعه المعنى،فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان،وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض"١٦.

٣-الاعتدال في استعمال الألوان البديعية :

قرر ابن سنان التوسط والاعتدال أنه"إن قال لنا قائل كيف يكون التصريع وغيره من الأصناف التي أشرتم إليها حسنًا إذا قل وإن كثر لم يكن حسنًا؟قيل له: هذا غير مستنكر ولا مستطرف،وله أشباه كثيرة،فإن الخال يحسن في بعض الوجوه، ولو كان في ذلك الوجه عدة خيلان لكان قبيحًا،ويكون في بعض النقوش يسير من سواد وحمرة أو غيرهما من الألوان فيحسن ذلك المزاج والنقش بذلك القدر من اللون فإن زاد لم يكن حسنًا"١٧.

وهو في ذات الوقت عدَّ الإكثار من فن واحد من فنون البلاغة والإطالة فيه من أبرز مظاهر التكلف والتصنع،فاعتمد مقياس الاعتدال في تقويم كثير من الفنون البلاغية التي عرض لها،من ذلك ما قاله في معرض حديثه عن الترصيع:" وقال أبوالعلاء أحمد بن عبدالله:

أَلِفْتُ المَلا حتى تعَلَّمْتُ بالفَلا
رُنُوَّ الطلَى أو صنعةَ الآلِ في الخَدْعِ

فهذا وأمثاله إذا كان قدرًا يسرًا حسن على ما ذكرناه،فإما إذا توالى وكثر فإنه يقبح لدلالته على التكلف وإن كان كل منه بانفراده جيدًا"١٨.

وفي وصيته للأديب والشاعر يقول:"والوصية لهما ترك التكليف،والاسترسال مع الطبع،وفرط التحرز وسوء الظن بالنفس، ومشاورة أهل المعرفة، وبغض الإكثار والإطالة، وتجنب الإسهاب في فن واحد من فنون الصناعة،فإن كلام الإنسان ترجمان عقله، ومعيار

فهمه،وعنوان حسه،والدليل على كل أمر لولاه لخفي منه،وبحسب ذلك يحتاج إلى فضل التثقيف،واجتماع اللب عند النظم والتأليف"١٩.

٤-صقل الذوق:

بديهي أن الذوق ملكة فطرية،وهبة طبيعية،تولد مع الإنسان فيعبر عنها "بصفاء الذهن، وخصب القريحة، وجمال الاستعداد وبعد ذلك يأتي التهذيب والتعليم،فليس من شك أن الدرس ينمي الذوق، ويهذبه ويسمو به إلى درجة محمودة، فالأديب ذو الفطرة والذوق يفيد من قراءة الأدب ومعالجة الفنون فنراه بعد قليل مصقول الذوق، ثاقب الذهن،يضع يده على العبارة البليغة، والخيال الجميل، ويدرك صدق العاطفة"٢٠.

وقد نبه ابن سنان إلى ضرورة تدريب الذوق وصقله بكثرة مخالطة فنون الأدب وميادينه مع طول الخبرة فقال:" من له بها –أي البلاغة–معرفة وسابق علم إنما حصل له ذلك بالمخالطة والمناشدة،وتأمل الأشعار الكثيرة،والكلام المؤلف، على طول الوقت وتراخي الأزمنة،وليس يمكنه أن يحضر لمن أراد تعليمه كل بيت سمعه،وفصل تأمله،ولفظة كرهها،ومعنى حكم بفساده أو بصحته لأن هذا يحتاج إلى الزمان الطويل والأيام الكثيرة"٢١.

وواضح أن ابن سنان يقصد باللب الاستعداد الفطري والملكة الفنية التي تؤهل الأديب وتمكنه من صنعته،وأن حضور اللب عند التأليف واجتماع القلب والعقل لحظة الإبداع لمن أدل الأمور على قوة العمل وقيمته وإلا صار ضعيفًا هزيلا لا يسمن ولا يغني.

تغليب المنظوم على المنثور في التمثيل:

بين ابن سنان علة تقديم الشعر على النثر في التمثيل،وأنه قد انصب اهتمامه على الشعر أكثر من النثر،فقال:" فأما اقتصاري في أكثر ما أمثل به على المنظوم دون المنثور مع أن كلامي عليهما واحد، فإنما أقصد ذلك لكثرة المنظوم واشتهاره، ورغبتي في أن يسهل الوزن عليك حفظ ما أذكره، فإنه داع قوي وسبب وكيد٢٢.

أما النماذج التي رصدها البحث لمواطن المزج في "سر الفصاحة" فكثيرة متناثرة فيه،يمكن الإشارة إليها. ومنها:

١-فصاحة الكلمة:

- بعد أن ذكر ابن سنان الشرط الخامس الواجب في فصاحة الكلمة – رغم مبالغته في شروطها– علق بقوله: " فإن هذا وأشباهه وما يجري مجراه، وإن لم يؤثر في فصاحة الكلمة كبير تأثير، فإنني أوثر صيانتها عنه،لأن الفصاحة تنبىء عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها.ولها من هذه الأمور صفة نقص فيجب اطراحها. على أن ما ذكرته يختلف قبحه في بعض المواضع دون بعض على قدر التأويل فيه وحكمه"٢٣.وهذا كلام يدل على أهمية الذوق والحس الجمالي للكلمة.
- عند ذكره الشرط السادس وهو أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره، فإذا أوردت،وهي غير مقصود بها ذلك المعنى، قبحت وإن كملت فيها الصفات التي بيناها. وقد استشد على ذلك ببيت عروة بن الورد العبسي:

قلتُ لقوم في الكنيف تروَّحُوا
عشيةَ بتْنَا عند ماوانَ رُزَّحِ

والكنيف أصله الساتر، ومنه قيل للترس كنيف، غير أنه قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث وشهر بها،فأنا أكرهه في شعر عروة، وإن كان ورد موردا صحيحاً لموافقة هذا العرف الطارىء. على أن لعروة عذراً وهو جواز أن يكون هذا الاستعمال حدث بعده. بل لا أشك أنه كذلك لأن العرب أهل الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار. فهو وإن كان معذوراً وغير ملوم فبيته مما يصح التمثيل به٢٤.

فابن سنان قد جعل شرطا في فصاحة الكلمة وهو أنه لم يرض التعبير عنها بما يشينها ويزري بها أو بما يُكرَه ذكرُه لمنافاة ذلك للذوق،كما في(الكنيف)،وإذا كان المصنف قد برر لعروة كلمته لكنه لم يحبذها لمنافاتها الحس الجمالي المفترض في الأشعار.

- وفي الشرط السابع لفصاحة الكلمة" أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة. ومن ذلك قول أبي نصر بن نُباته:

فإيَّاكُمْ أن تكشفوا عن رؤوسكُم
ألا إنَّ مغناطيسَهُنَّ الذوائبُ

فمغناطيسهن كلمة غير مرضية لما ذكرته وإن كان فيها أيضاً عيوب أُخَرَ٢٥ وقد استشهد على ذلك بقول أبي تمام:

فلأذْربيجانَ اخْتيالٌ بعدمَا
كانت مُعَرَّسَ عبرةٍ ونكالِ
سَمُجَتْ ونَبَّهَنا على استسماجها
ما حوْلَها من نضرةٍ وجمالِ

ونحو من هذا قول المتنبي:

إن الكريم بلا كرام منهمُ
مثل القلوب بلا سويداواتها

فقد استثقل ابن سنان كلمة (أذربيجان) وكلمة (استسماجها) و(سويداواتها) لطولها ورداءتها وكثرة حروفها، وخروجها عن المعتاد في الألفاظ إلى الشاذ النادر.فلذا لا يختارها.وعدم الاختيار هنا مبني على الذوق والحس الجمالي رغم فصاحة الكلمات.

٢-تكرار الألفاظ:

وفي موطن تعرض ابن سنان لقضية تكرار الشاعر لبعض الألفاظ أشار في القسم الثاني من فصاحة التراكيب أن ما يقوي فصاحة التراكيب "هو أن تجد للفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها لا من أجل تباعد الحروف فقط،بل لأمر يقع في التأليف، ويعرض في المزاج، كما يتفق في بعض النقوش،..فإن هذا إنما يكون في التأليف إذا ترادفت الكلمات المختارة، فيوجد الحسن فيه أكثر وتزيد طلاوته على ما لا يجمع من تلك الكلمات إلا القليل. وهذا لعمري إنما يرجع إلى اللفظة بانفرادها، وليس للتأليف فيه إلا ما أثاره التواتر والترادف"٢٦.

٣-الذوق اللغوي:

وقد لفت المصنف بذلك إلى الذوق اللغوي ثم عاد فأكده مرة أخرى بقوله: إننا لا ننكر أن يكون بعض ما ذكرناه من الأقسام أظهر من بعض، وتأثيرها في الفصاحة أوضح وأجلى من غيره. لكنا على كل حال لا نرضى بالقطع على اختيار الكلام العربي المؤلف، والشهادة بحسنه، وهو مخالف لما تلفظت به العرب، وتواضعت عليه، إن كان مواضعة، وفيه وجه آخر من وجوه القبح عندهم،ولا يكون حسنا حتى تنتفي عنهم وجوه القبح في مثله،على أننا نجد في تغير الكانيات وعدول الضمائر عن النسق في إيرادها ما يزيل شطرًا من الفصاحة وطرفا من الرونق"٢٧.

٤-الاستعارة:

وفي مبحث الاستعارة تعرض ابن سنان للذوق ووظفه في المزج،من ذلك قوله:"من وضع الألفاظ في موضعها حسن الاستعارة قول طفيل الغنوي:

وَجَعلتُ كُوري فوقَ ناجِيةٍ
يَقتَاتُ شحْمَ سَنَامِهَا الرَّحْلُ

فإن استعارة هذا البيت مرضية عند جماعة العلماء بالشعر، لأن الشحم لما كان من الأشياء التي تقتات وكان الرجل يتخونه ويذيبه كان ذلك بمترلة من يقتاته، وحسنت استعارته القوت للقرب والمناسبة والشبه الواضح.٢٨وكذلك قول ذي الرمة في إحدى الروايات:

أقامتْ به حتى ذوى العودُ والثرَى
ولفَّ الثُّريَّا في ملاءته الفجرُ

لأن الفجر لما غطى الليل ببياضه وشمل الأرض عند طلوعه، حسنت استعارة الملاءة له لتضمنها هذا المعنى، وعب بطلوع الثريا وقت طلوع الفجر بأنه لفها في ملاءته وتلك أحسن عبارة وأوضح استعارة٢٩. وقد اختار أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي الكاتب من جملة الاستعارة قول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردفَ أعجازاً وناء بكلكلِ

وقال: إن هذه الاستعارة في غاية الحسن والجودة والصحة، لأنه إنما قصد وصف أحوال الليل الطويل فذكر امتداد وسطه وتثاقل صدره للذهاب والانبعاث وترداف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً قال: وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته،

وذلك أشد ما يكون على من يراعيه ويترقب تصرمه فلما جعل له وسطاً يمتد وأعجازاً رادفة للوسط استعار له اسم الصلب وجعله متمطياً من أجل امتداده، لأن قولهم تمطى وتمدد بمترلة واحدة وصلح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه،وهذه أقرب الاستعارات من الحقيقة لملاءمة معناها لمعنى ما استعيرت٣٠.

وكل ما سقناه في هذا المزيج المتعلق بالحس الجمالي والمقياس البلاغي والحكم النقدي يؤكد أن ابن سنان سار على منهج فني تفرد به،وأنه اتخذ من القيم الجمالية الكامنة في النص الأدبي طريقًا لإبرازها ودراستها وتحليلها في ضوء ما تقرر من المعايير والقواعد والأصول التي استند فيها إلى ذوقه الفني،لكن الدكتور محمد زغلول سلام يفجؤنا بتنكره لهذه الحقيقة التي رسخها ابن سنان بل وتجريده منها،فقال:"نرى أن ابن سنان عالم يحكم عقله،وليس ناقدًا يحكم ذوقه وخبرته بالنصوص وتلمسه لأسرار الجمال فيها"٣١

- وفي الشرط الثامن أشار إلى أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك فإني أراها تحسن به ويجب ذكره في الأقسام المفصلة،ولعل ذلك لموقع الاختصار بالتصغير،ومثال ذلك قول الشريف الرضي:

يولَّعُ الطلُّ بَرْدَيْنا وقد نسمتْ

رُوَيحَةُ الفجر بين الضَّال والسلم

فلما كانت الريح المقصودة هناك نسيما مريضاً ضعيفاً حسنت العبارة عنه بالتصغير؛وكان للكلمة طلاوة وعذوبة٣٢فالتصغير جاء في موضعه الذي يستحسن في البيت.

٥-فصاحة التراكيب:

وفي فصاحة التراكيب أشار ابن سنان إلى أن الناظم يجب أن يجتنب تكرُّر الحروف المتقاربة في تأليف الكلام مثلما أمرناه بتجنب ذلك في اللفظة الواحدة بل هذا في التأليف أقبح،وذلك أن اللفظة المفردة لا يستمر فيها من تكرار الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثل ما يستمر في الكلام المؤلف إذا طال واتسع. وما زال أصحابنا يعجبون من هذا البيت:

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما

كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

وليس يحتاج إلى دليل على قبحه للتكرار أكثر من سماعه ٣٣

٦-السجع والازدواج:

ومن المناسبة بين الألفاظ في الصيغ: السجع والازدواج، ويحد السجع بأنه تماثل الحروف في مقاطع الفصول وبعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج في الكلام، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه فأهذب طلاوة الكلام، وأزال ماءه وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها ويظهر آثار الصنعة فيها لولا ذلك لم يرد في

كلام االله تعالى وكلام النبي صلى االله عليه وسلم والفصيح من كلام العرب، وكما أن الشعر يحسن بتساوي قوافيه، كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف في فصوله.

ويرى أن المذهب الصحيح هو أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة،بحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه،ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله ورد ليصير وصلة إليه،فإنا متى حمدنا هذا الجنس من السجع كنا قد وافقنا دليل من كرهه وعملنا بموجبه،لأنه إنما دل على قبح ما يقع من السجع بتعمُّلٍ وتكلف.

ويبين أنه لم يستحسنه إلا ما كان منه سهلا غير متكلف،فيقول:" ونحن لم نستحسن ذلك النوع ووافقنا أيضاً دليل من اختاره؛لأنه إنما دل به على حسن ما ورد منه في كتاب االله تعالى وكلام النبي صلى االله عليه وسلم والفصحاء من العرب. وكان يحسن الكلام ويبين آثار الصناعة ويجرى مجرى القوافي المحمودة،والذي يكون بهذه الصفات هو الذي حمدناه واخترناه وذكرنا أنه يكون سهلاً غير مستكره ولا متكلف.٣٤

٧-الوزن الشعري:

اتخذ من الأوزان سبيلًا إلى الذوق ووصولًا إلى الجمال المنوط في الشعر فقال:"ويحتاج الشاعر خاصة إلى معرفة الخمسة عشر بحرًا التي ذكرها الخليل بن أحمد٣٥،وما يجوز فيها من الزحاف ولست أوجب عليه المعرفة بها لينظم بعمله،فإن النظم مبني على الذوق،ولو نظم بتقطيع التفاعيل جاء شعره متكلفًا غير مرضيٍّ"٣٦.

وأكد ابن سنان كلامه بما حكاه الجاحظ في البيان والتبيين بوصية بشر بن المعتمر٣٧ في البلاغة التي يقول فيها:"إذا لم تجد اللفظة واقعةً موقعها،ولا صائرة إلى مستقرها،ولا حالة في مركزها،فلا تكرهها على القرار في غير موطنها،فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون،ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور،لم يعبك بترك ذلك أحد،وأنت إذا تكلفتهما ولم تكن حاذقًا فيهما،عابك من أنت أقل عيبًا منه،وأزرى عليك من أنت فوقه "٣٨. وقد عقب ابن سنان على تلك الوصية بقوله:"وهذا كلام صحيح يجب أن يقتدى به في هذه الصناعة"٣٩. وفي فصل (فيما يحتاج مؤلف الكلام إلى معرفته)تعرض المصنف إلى الحس الجمالي وربطه بما يحتاجُ إليه في علم النحو إلى معرفة إعراب ما يقع له في التأليف حتى لا يذكر لفظة إلا موضوعة حيث وضعتها العرب من إعراب" ثم بين أن "النظم مبنى على الذوق ولو نظم بتقطيع الأفاعيل جاء شعره متكلفاً غير مرضي،وإنما أريد له معرفة ما ذكرته من العروض، لأن الذوق ينبو عن بعض الزحافات وهو جائز في العروض وقد ورد للعرب مثله فلولا علم العروض لم يفرق بين ما يجوز من ذلك وبين ما لا يجوز ويفتقر أيضاً من العلم بالقوافي إلى معرفة الحروف والحركات وما يصلح أن يكون روياً أو ردفاً مما لا يصح".٤٠

نقد الدارسين:

هناك نقدات كثيرة لمنهج ابن سنان وردود عليها لكن ما يفيد موضوعنا يتمثل فيما أخذه ضياء الدين ابن الأثير على

منهج كتاب سر الفصاحة وهو " ازدحامه بما قل به مقداره من ذكر الأصوات والحروف والكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى أكثره"٤١.

ولا يوافق الدكتور بدوي طبانة ابن الأثير فيما ذهب إليه،ويرى أنه لا عبرة بنقده؛لأن الخفاجي في كلامه على الأصوات والحروف ذكر منها ما يؤلف وما لا يؤلف،ولذلك من بعد الأثر في وقع الكلام على السمع والذوق،وتقديره عند أهل صناعة البيان ما لا يخفى"٤٢. ويقول أيضًا:"ولكل ذلك أثره في الإبانة والإفصاح؛لأن الكلمات هي لبنات النص الأدبي،وما لم تكن هذه اللبنات سليمة في تكوينها جيدة في مادتها،فإن بناء النص لابد سيكون ضعيفًا سريع الانهيار"٤٣.

وأزعم أن ذلك قد يبدو مقبولًا من النظرة العجلى عند قراءة الفصول المتقدمة في الكتاب،لكن حينما نمضي في دراسته وتفحص مباحثه ومبانيه تتغير النظرة،ونوقن بأن ابن سنان كان محقًّا،إذ أدرك أن ثمة صلة بين بحوث الصوت والحرف والكلمة من جانب وبحث الفصاحة الذي هو موضوع كتابه من جانب آخر،فلايمكن الحديث عن الفصاحة بمعزل عن دراسة الأصوات والحروف والكلمات، لذا أخذ على عاتقه مسؤولية تفصيل ذلك وبيانه من الجذور والمراحل الأولى،لمعرفة ما يستحسن وما يستهجن من الأصوات،وما يلائم وما يخالف من الحروف.ولا شك في أن الأمر يتصل بالذوق الأدبي بوجه من الوجوه.

- على الرغم من قولنا إن منهج الكتاب بلاغي وأنه مزج البلاغة بالحس الجمالي والحكم النقدي إلا أنه لم يكن كذلك على طول الخط،فالملاحظ أنه تطرق إلى موضوعات خارجة عن هذا الإطار، وهذا ليس عند ابن سنان فحسب ولكنه عيب فاشٍ في معظم المصنفات البلاغية إلا أنه في سر الفصاحة أقل بكثير إذا ما قارناه بالعمدة لابن رشيق وقد أُلِّف في عصر ابن سنان.ومن أبرز تلك الموضوعات الأجنبية :الفرق بين الشعر والنثر وما يقال في تفضيل أحدهما على الآخر،كما أن حديثه عن العروض والقوافي وعيوبها، وهي موضوعات ليست في صميم الفصاحة أو البلاغة.

وبعد،فإن الحس الجمالي الذي أعمله ابن سنان في تقويم النصوص أحيا به البلاغة،وأزاح عنها صفة الجفاف والجمود،وأكسب بنية النص روحًا ومتعةً وجمالًا ما كان لها أن تكون لولا ما حظيت به من ذوق ابن سنان ومنهجه الذي كشف لنا عنه في كتابه، وأظهرنا على أسرار الحسن وأسباب القبح فيما تناوله،وجعل المتأدب يقف على حصيلة وافرة من المادة الأدبية يتدرب بها على كيفية نقد النص وتقويمه بذائقة أدبية،وقد جمع إلى كل ذلك علمًا بأصول وقواعد سر فصاحة الكلمة وبلاغتها.ولاشك في أن ذلك يدل على غزارة مادة المصنف وسعة اطلاعه،ويشير إلى عقل مؤلفه وحسن اختياره،وإحاطته بعلوم البلاغة ووعيه الحصيف بأفانين بثها ونشرها بهذا المزاج الذي جمع فيه بين الحس الجمالي والمقياس البلاغي والحكم النقدي.لقد حمل ابن سنان معه في رحلته أسلاب الشاعر وغنائمه وخاض بها الغمار،وتفوق في المضمار.

الهوامش:

١-سر الفصاحة،ابن سنان الخفاجي الحلبي(٤٦٦ه) تحقيق:داود غطاشة الشوابكة، ط.الأولى، ٢٠٠٦،دار الفكر عمان، الأردن

٢-(ابن سنان الخفاجي وكتابه سر الفصاحة من غواية الذوق إلى تجليات المنهج وإبداع المضمون)، إسلام ماهر فرج عمارة، مجلة محكمة،كلية الإلهيات،جامعة ألوداغ،تركيا، ٢٠١٤،العدد ٢٣، ص ١٠٣

٣- قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، بدوي طبانة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط.الثالثة، ١٩٦٩،١٩

٤- مقدمة في النقد الأدبي،محمد حسن عبد الله، الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٧٥،٦٤

٥- مقدمة في النقد الأدبي،٥١

٦- ابن سنان الخفاجي وكتابه سر الفصاحة من غواية الذوق إلى تجليات المنهج وإبداع المضمون،إسلام ماهر فرج عمارة،١٠٥

٧- أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، القاهرة، مكتبة النهضة، ط.العاشرة، ١٩٩٤،٥١

٨- أبوهلال العسكري ومقاييسه البلاغية، بدوي الطبانة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،١٧

٩- ابن سنان الخفاجي وكتابه سر الفصاحة من غواية الذوق إلى تجليات المنهج وإبداع المضمون،إسلام ماهر فرج عمارة،١٠٦

١٠- البيان العربي، بدوي طبانة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،ط.الثانية، ١٩٥٨، ١٩٠

١١- سر الفصاحة،٥٢

١٢- سر الفصاحة،١٨٥

١٣- سر الفصاحة،٦٥

١٤- سر الفصاحة،٥٩

١٥- سر الفصاحة،٥٨

١٦- سر الفصاحة،١٦٦

١٧- سر الفصاحة،١٨١

١٨- سر الفصاحة،١٨٣

١٩- سر الفصاحة،٢٧٩

٢٠- أصول النقد الأدبي،١٢١

٢١- سر الفصاحة،٩١

٢٢- سر الفصاحة،٧١

٢٣- سر الفصاحة،٧٩

٢٤- سر الفصاحة،٨٠

٢٥- سر الفصاحة،٨٣

٢٦- سر الفصاحة،١٠١

٢٧- سر الفصاحة،١٠٢

٢٨- سر الفصاحة،١١٥

٢٩- سر الفصاحة،١١٦

٣٠- سر الفصاحة،١١٦

٣١- تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس الهجري حتى القرن العاشر، محمد زغلول سلام، الاسكندرية، منشأة المعارف،٢٠٠٠،٢٦٣.

٣٢- سر الفصاحة،٨٤

٣٣- سر الفصاحة،٩٦

٣٤- سر الفصاحة،١٦٤

٣٥- الخليل بن أحمد الفراهيدي،أبوعبد الرحمن،من أئمة اللغة والأدب،واضع علم العروض،وهو أستاذ سيبويه النحوي،ولد في البصرة سنة١٠٠هـ،وتوفي فيها سنة ١٧٠ هـ،ومن كتبه معجم العين.

٣٦- سر الفصاحة،٢٧٨

٣٧- بشر بن المعتمر الهلالي البغدادي،أبوسهل،فقيه معتزلي،من أهل الكوفة،تنسب إليه الطائفة "البِشْرية" ،له مصنفات في الاعتزال منها قصيدة في أربعين ألف بيت رد فيها على جميع المخالفين،مات ببغداد سنة٢١٠هـ، وقد أورد الجاحظ صحيفة بشر بن المعتمر في كتابه البيان والتبيين (نشر: عبد السلام هارون)، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١:١٣٥ وما بعدها

٣٨- سر الفصاحة،١٦٥

٣٩- سر الفصاحة،١٦٥

٤٠- سر الفصاحة،٢٧٨

٤١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،(نشر: أحمد الحوفي بدوي طبانة)، القاهرة، مكتبة النهضة،١،٣٤

٤٢-البيان العربي،١٩٣

٤٣-البيان العربي،٢١٦،(ابن سنان الخفاجي وكتابه سر الفصاحة من غواية الذوق إلى تجليات المنهج وإبداع المضمون)،إسلام ماهر فرج عمارة،١١٧